خالصُ شُكرِي وتقديرِي لفضيلةِ الشَّيخِ الأكبرِ شيخِ الأزهرِ لإتاحةِ الفرصةِ لي للمشاركةِ في هذَا المؤتمَرِ الَّذي يبحثُ في ملفٍ شائكٍ ومفتوحٍ منذُ بضعةِ عقودٍ مضَتْ، ولا أظنُّهُ سيُغلَقُ قريبًا.

إنَّ علاقةَ الإسلامِ والغربِ لا تبدُو بالعلاقةِ الطَّارئةِ، فهي علاقةٌ متجذِّرَةٌ منذُ عقودٍ طويلةٍ مضَتْ، ولذلكَ فإنَّني أعتقدُ أنَّ دراسةَ هذهِ العلاقةِ في تاريخِهَا، وتَأثُّرِهَا وتَأثِيرِهَا، ومُنْتَجِهَا السِّياسيِّ والثَّقافيِّ والاجتماعيِّ يجبُ أنْ تتمَّ بناءً على أُسسٍ علميَّةٍ صارمَةٍ وعميقةٍ حتَّى نتوصَّلَ جميعًا إلى تشخيصٍ دقيقٍ وعميقٍ لتلكَ العلاقةِ.

نحنُ والغربُ شركاءُ في حوضِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، ونتقاسمُ إقليمينِ مترابطينِ تاريخيًّا وجغرافيًّا ومصلَحيًّا، ولذلك فإنَّ ما يحدثُ في أيٍّ من الإقليمينِ يُؤثِّرُ في الإقليمِ الآخَر سلبًا أو إيجابًا، لذلك علينا نحنُ الطرفين القيامُ بواجبِ كُلٍّ تجاه الآخَرِ.

ونبدأُ بأنفسِنَا وأقولُ: إنَّ علَى المجتمعاتِ العربيَّةِ والحكوماتِ أن تُقَرِّرَ توجُّهَهَا النِّهائيَّ بالنِّسبَةِ لعلاقةِ الدَّولةِ بالدِّينِ، وبعدَ الَّذي شاهدناهُ وعِشْنَاهُ من أحداثٍ أخيرةٍ عصفتْ بالمنطقةِ، وساهمتْ بنقلِ الإسلامِ السِّياسيِّ إلَى السُّلطةِ والحكْمِ في بعضِ الأقطارِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ.

لقد بَدَا الفَشلُ واضحًا تمامًا في تجربةِ الإسلامِ السِّياسيِّ في الحكمِ، والأسبابُ هنا كثيرةٌ ومتعددةٌ، ربَّما مِن أهمِّهَا: أنَّ مجموعاتِ الإسلامِ السِّياسيِّ الَّتي وصلَتْ إلى الحكمِ في مصرَ وتونس وأقطارٍ عربيَّةٍ أخرَى لمْ تكنْ تملكُ برنامجَ إدارةِ شؤونِ الدَّولةِ والحُكْمِ، ولم تكنْ تملكُ الخبرةَ أيضًا، فقدْ كانَ الإسلامُ السِّياسيُّ غيرَ مستعدٍ أبدًا لقيادةِ البلادِ، ولذلكَ رافقَهُ الفَشلُ السَّريعُ في تجربتِهِ القصيرةِ نسبيًّا.

وأرى أنَّنا كشُعُوبٍ نعيشُ على الشَّاطئِ الجنوبيِّ لحوضِ المتوسِّطِ أنْ نذهبَ سريعًا لإجراءِ إصلاحاتٍ أساسيَّةٍ وجوهريَّةٍ لتحديثِ مجتمعاتِنَا، وتحديثِ السِّياساتِ على تَنَوُّعِهَا، حتَّى نستطيعَ مواكبةَ التقدُّمِ العلميِّ والإداريِّ والسِّياسيِّ لشركائِنَا علَى الشَّاطئِ الشَّماليِّ لحوضِ المتوسِّطِ في بلادِ الغربِ.

ولا شكَّ أنَّ هذَا المطلبَ مهمٌّ جدًّا، وتقعُ مسؤوليَّةُ إنجازِهِ علينَا كمجتمعاتٍ وحكوماتٍ عربيَّةٍ شريطةَ أنْ لَا تتدخَّلَ القُوى العالَميَّةُ لتعطيلِ هذهِ المسيرةِ خدمةً لمصالِحِهَا.

ولا بُدَّ أنْ ندعَ هذهِ الأمورَ تسيرُ في سياقِهَا الطبيعيِّ بحيثُ تمنحُ الشَّعبَ العربيَّ سلطةَ أنْ يكونَ هو وحدَهُ صاحبَ الرَّأيِ والكلمةِ الأخيرةِ في صياغةِ مشروعِهِ

الحياتيِّ الإصلاحيِّ والمُسْتقبليِّ. وفي المقابلِ فإنَّ علَى الغربِ أنْ يقومَ هو الآخرُ بخطواتٍ أساسيَّةٍ لتعديلِ موازينِ القُوى في المنطقةِ، وَعلَيَّ واجبُ التَّذكيرِ هُنَا بأنَّ الغربَ قدْ استعمرَ العالَمَ العربيَّ لعقودٍ طويلةٍ، وهُو الَّذي أصدرَ وعدَ «بلفورد» الَّذي أنتجَ دولةَ الاحتلالِ الإسرائيليِّ.

وإنَّ مَا يُؤسَفُ لهُ أنَّ الغربَ الَّذي صنعَ إسرائيلَ في قلبِ العالَمِ العربيِّ، وعلَى حسابِ الشَّعبِ الفلسطينيِّ، لا يزالُ يُدافِعُ بشراسةٍ عنهَا، بغضِّ النَّظرِ عن مدَى مخالفتِهَا للقراراتِ الدَّوليَّةِ وخروجِهَا علَى القانونِ الدَّوليِّ، فضلًا عنْ جرائمِهَا الإنسانيَّةِ بحقِّ الشَّعبِ الفلسطينيِّ.

إنْ استمرَّ تجاهُلُ الغربِ للجرائمِ الإسرائيليَّةِ وللتَّعنُّتِ الإسرائيليِّ واستمرارِهَا في سَرقةِ أراضِي الفلسطينيِّينَ وحرمانِهِم من أبسطِ الحقوقِ الإنسانيَّةِ فسيبقَى أحدَ أبرَزِ العواملِ الَّتي تديمُ حالةَ التَّشنُّجِ بينَنَا وبينَ الغربِ.

وأودُّ أن أُذَكِّرَكُم بأمرٍ في غايةِ الأهميَّةِ هُنا، ففِي الوقتِ الَّذي كانَ فيهِ جِدارُ برلينَ يُدمَّرُ وينهَارُ باحتفالٍ عالميٍّ على هذَا الحدَثِ المهمِّ كانتْ إسرائيلُ تبنِي جِدارَ الفصلِ العنصريِّ ليمتدَّ على طولِ ٧٠٠ كم، وأمامَ أعيُنِ العَالَمِ، إلَّا أنَّ منَ المُؤسفِ لهُ أنَّ أحدًا لم يعترضْ على هذَا الجدارِ العنصريِّ، الَّذي أصبحَ الآنَ أمرًا إسرائيليًّا واقعًا بحكمِ التَّعنُّتِ الإسرائيليِّ من جهةٍ، وبحكمِ الدَّعمِ الغربيِّ من جهةٍ أُخْرَى.

وأشيرُ هنَا إلى أمرٍ آخرَ في غايةِ الخطورَةِ، فقدْ تبنَّتْ الحكومةُ الإسرائيليَّةُ مُؤخَّرًا قانونًا أساسيًّا تُؤكدُ فيهِ علَى أنَّ مكانَ عملِ (دولةِ إسرائيلَ) في السَّاحاتِ كافَّةً، وبالتَّالي فإنَّها تدافعُ -كما تزعُمُ- عن أراضِيهَا الَّتي حصلتْ عليهَا عامَ ١٩٤٨م.

ولا بُدَّ لِي منَ التَّساؤُلِ هنَا، هلْ منَ المعقُولِ القَبولُ بمثلِ هذَا القانونِ الَّذي تلغِي فيهِ دولةُ الاحتلالِ الإسرائيليِّ جنسيَّةَ الفلسطينيِّينَ وهُويتَهُم الوطنيَّةَ الرَّاسخةَ في التَّاريخِ والجغرافيَا؟ فمنذُ أجدادِ أجدادِهِم وهُم مواطنونَ يعيشُونَ على أرضِهِم، ودونَ أنْ يتحرَّكَ أحدٌ منَ الغربِ ليطلبَ من إسرائيلَ التَّوقُّفَ عنْ هذهِ السِّياسةِ الاحتلاليَّةِ العُنصريَّةِ.

وبكُلِّ صراحةٍ ووضوحٍ، أقولُ للعالَمِ: إنَّ القضيَّةَ الفلسطينيَّةَ لنْ تموتَ، وسيبقَى الشَّرقُ الأوسطُ وكافَّةُ مناطقِ الدُّولِ الإسلاميَّةِ مستنفِرًا ضِدَّ دولةِ الاحتلالِ إلَى أنْ يقضيَ اللَّه أمرًا محسُومًا. ومحاولةُ الغربِ تجاهلَ هذهِ الحقائقِ، أو غضَّ النَّظرِ عن هذِهِ الانتهاكاتِ، لن يزيدَ النَّاسَ إلا غضبًا وحقدًا.

أنتم أيُّها الغربيُّونَ لا تعرفُونَ مدَى الإهانةِ الَّتي يشعرُ بها المواطنُ العربيُّ، وهُوَ يشاهدُ العقمَ العربيَّ أمامَ العربدَةِ العسكريَّةِ، أو أمامَ انحيازِ أمريكَا التَّامِ، أوْ حتَّى عندمَا يراقِبُ كمْ هيَ أوروبَّا جبانَةٌ في اتِّخاذِ موقفٍ صالحٍ، عِلْمًا بأنَّ أوروبَّا هيَ الَّتي خلقتْ إسرائيلَ.